لماذا نتخلى عن الحقيقة بعد أن نكتشفها

الفن يسمح لنا بالكشف عن الحقائق دون عنف أو جراح

الحقيقة صنو لمثل أعلى، فهي أحد الواجبات الأخلاقية الأساسية، وفرض اجتماعي، وغاية العمل القضائي أيضا، أي أن الحقيقة شبيهة بالواجب، فكيف يمكن أن نتركها؟ وهل يحقّ لنا أن نسكت عن الحقيقة، فنعمد إلى الكذب؟ وإذا قبلنا السكوت عنها، ألا يعني ذلك أننا تخلينا أيضا عن البحث عنها؟

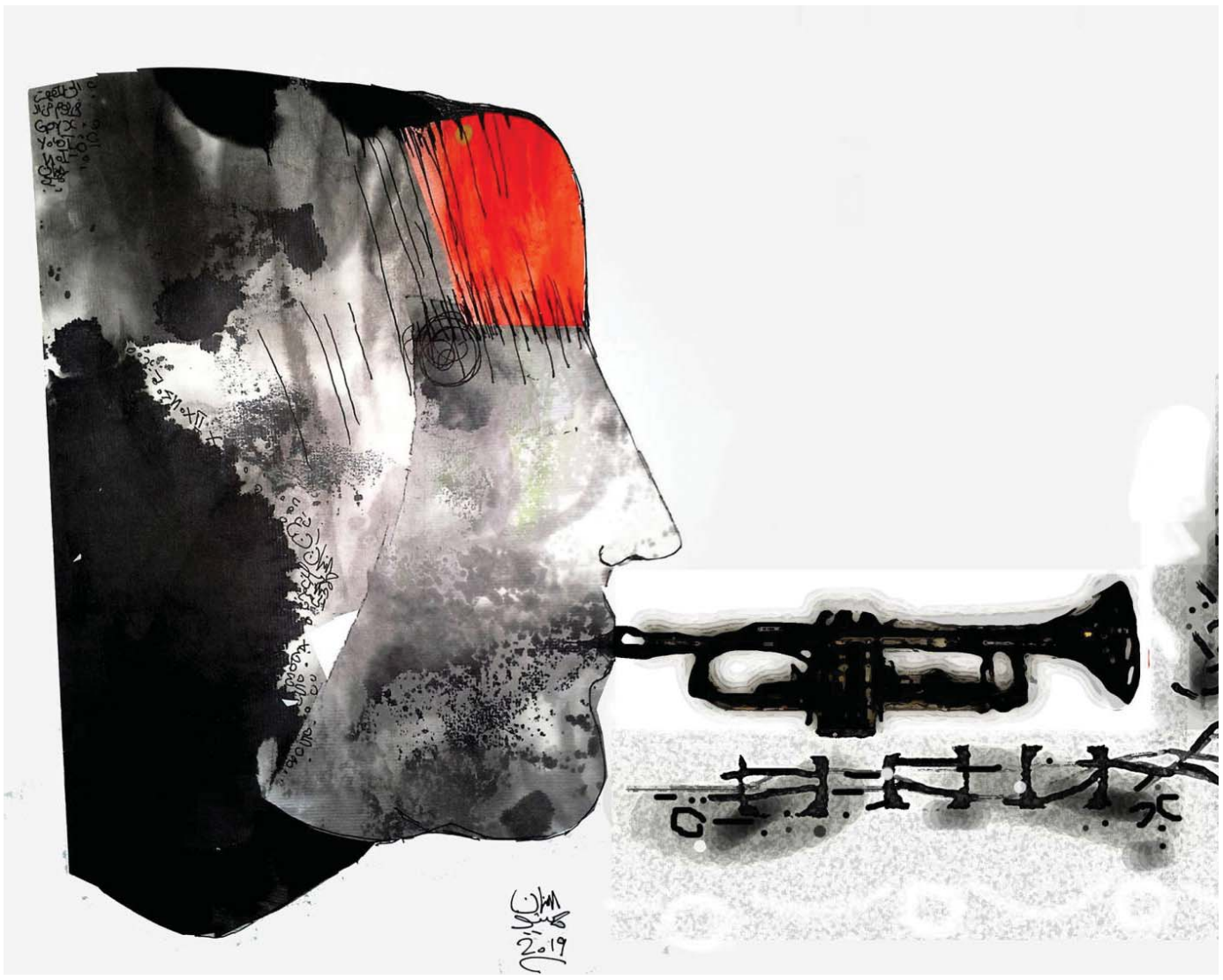

أنشر الحقيقة بصوت عال ولا تخف (لوحة للفنان عدنان معيتيق)

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

الحقيقة هي فرض اجتماعي، ولا يتم استقرار المجتمع إلا بإعلاء شأنها ومنع الكذب والباطل، ذلك أن المجتمع هو فضاء للتبادل والتفاهم، ولا بدّ أن يتحلى أفراده بالصدق والأمانة حتى تتم تلك المبادلات على أحسن وجه، إذ لا يمكن العيش في مجتمع تكون فيه الأقوال والأفعال محل شكّ، وهذا ما أوضحه نيتشه في "كتاب الفيلسوف".

بيد أن الحقيقة ليست حكرا على المجال الاجتماعي، فهي واجب أخلاقي أيضا، ووجه من أوجه كرامة الإنسان ونبل محتده، أي ذلك الذي يقدر على الظهور بمظهر طبعه العقلاني، لا يفكّر في مصلحته الخاصة وحدها، وإنما في ما ينزّهه عن الشبهة، لكي يكون جديرا بإنسانيته. ما يعني أن الحقيقة واجب أخلاقي مطلق، لا غنى عنه في شتى الظروف، لأن القانون الأخلاقي كما بيّن إيمانويل كانْت يمنعنا من التخلي عن الحقيقة منعا باتّا.

> العواقب الوخيمة للحقيقة، ليست هي نفسها الحقيقة، فقد تكون العواقب مضرة، ولكن الحقيقة في حدّ ذاتها محايدة

ولا تخص الحقيقة المجال الأخلاقي وحده، بل تمتد إلى المجال العلمي أيضا حيث يجدّ العالم في البحث عن الحقيقة، فيتكتّم عليها إن شاء، ولكنه لا يمكن أن يتخلى عن البحث عنها، لما فيه خير البشرية.

ولكن يحدث أن يتخلى المرء عن الحقيقة لكونها باهظة الثمن، قد تعرّض صاحبها إلى ما تأباه نفسه. ولذلك غالبا من تلجأ حاشية الحاكم، وحتى بطانته، إلى الكذب أو تزوير الحقيقة، إما إرضاء لغروره، أو خوفا من عقابه، كما بيّن باسكال في "الأفكار"، أو أفلاطون في استعارة الكهف، لأن من يعلم بالحقيقة عارية، فاضحة، قد يصاب بصدمة تجعله يرفضها رفضا قاطعاً، أو يعمل على إخفائها أو طمسها ولو خالف ذلك مبادئه.

ومن هنا، نفهم الأسباب التي تدفع المرء إلى ترك الحقيقة، لأن الجهل بها في هذه الحالة يولّد لديه نوعا من الراحة والطمأنينة، وهو ما يلج له روسو حين يدعو قارئه إلى الحلم، حلم اليقظة، كي ينأى بنفسه عن واقع يمكن أن يخيّب ظنه، فيغدو الوهم حينئذ أفضل من الحقيقة.

وقد يكون في إفشاء الحقيقة خطر، كما هو الشأن في الاكتشافات العلمية، التي قد يؤدي الكشف عنها إلى الاستحواذ عليها، واستعمالها استعمالا غير الذي يرجوه لها المكتشف. بل قد يكون حتى مجرّد البحث عنها مبعث خطر، كما أكّد هانز يوناس في "مبدأ المسؤولية"، حين بيّن المخاطر التي يمكن أن تَنجم عن الثقة المفرطة في الوسائل التقنية والتكنولوجية، لأنها قد تكون خطيرة ومضرّة. وفي تلك الحالة، يصبح التخلي عن الحقيقة أفضل.

غير أن بعض المفكرين يذهبون إلى القول إننا لا يمكن أن نتخلى عن الحقيقة، لأن الالتزام بها قد يمكن صاحبها من تجنب الآثار السلبية التي قد تعود عليه هو نفسه بالمضرة. ذلك أن العواقب الوخيمة للحقيقة، ليست هي نفسها الحقيقة، فقد تكون العواقب مضرة، ولكن الحقيقة في حدّ ذاتها محايدة.

وحتى وإن كانت عواقبها لا تسرّ، فلا يعني ذلك ضرورة التخلي عنها. فالباحث يمكن أن يتساءل عن سبل استعمال مخترعاته على نحو مضرّ، ولكنه ليس بوسعه أن يتخلى عنها، لأن العلم يتطور عن طريق انتقال المعرفة، كما بيّن كانْت أو كارل بوبر، وبإخفاء الحقيقة أو التراجع عنها يفقد البحث العلمي أسباب تطوره، بل قد يصبح التطور العلمي مستحيلا.

ولو فرضنا أن الفرد يتخلى عن الحقيقة عن خوف أو جبن، لكونها تحمل في أعطافها مخاطر، شخصية أو عامة، فإن ذلك سوف يخلق صعوبة الوصول إلى الحقيقة. ومن ثَمّ لا بدّ من أن يتحلى المرء بما أسماه ميشيل فوكو "شجاعة الحقيقة"، أي أن يقوله ولو كان مرًّا، أن يجرؤ على قول ما يعتبره حقيقة ولو كان في غير مصلحته.

ذلك ما يروجه المنظرون في علم الأخلاق والفلاسفة والمفكرون، وهو كلام جميل ومنطقي في المطلق، أي حين يكون المرء في سعة، ليس له ما يزعجه، ولكن الواقع عكس هذا، فليس من السهل أن ينطق غاليليو بحقيقة علمية تخالف ما استقر في ذهن مجتمعات جمّد الفكر الديني تفكيرها، وحكم عليها ألا تنظر إلى المسائل كلّها، حتى ما كان العلم مرجعه، إلا من زاوية المعتقدات الدينية البالية. أن يصرّ على ذكر ما رأى رأي العين واستخلص حقيقته كان سيؤدي به إلى موت محتوم.

ومن ثَمّ كان تراجعه أمام الكنيسة التي انتصبت لمحاكمته وتكفيره، حتى وإن كان ذلك مناورة، حيث احتفظ بحقيقته لنفسه، ودوّنها في مخطوطات استفاد منها العلم من بعده، وأكد على أهميتها البالغة في تغيير نظرتنا إلى الكون.

وقس على ذلك أمثلة كثيرة عمن راموا النطق بالحقيقة فكان مآلهم السجن والتنكيل والنفي والإقصاء، أو خنق أصواتهم وأنفاسهم نهائيًا، خاصة في الأنظمة الاستبدادية ذات الحكم العسكري أو الفردي المطلق.

فكيف نتمسك إذن بالحقيقة ولا نتخلى عنها؟ والجواب: بوضعها في شكل يسمح بتجنب الجرح الذي يسببه الكشف عنها. "فالفن مثلا يمكن أن يسمح لنا بالكشف عن الحقيقة، دون العنف الذي يرافق ذلك الكشف" على حدّ تعبير مارسيل بروست.

آن الأوان للاعتراف بدور المرأة الأردنية في الحراك المسرحي

عمان - يحتفل الأردنيون على امتداد سنة 2021 بالمئوية الأولى من عمر الدولة الأردنية الحديثة، بما يميزها ويخط لها ملامح خاصة في محيطها العربي والعالمي، وخاصة عبر المنجز الثقافي والفني، حيث قدم الأردن للساحة الثقافية العربية الكثير من الفنانين التشكيليين والموسيقيين والأعمال الدرامية والكتاب والشعراء والمسرحيين وغيرهم من النخب التي كانت صوت الأردن المتفرد في منطقة الشرق الأوسط الثرية بثقافاتها وفنونها وحضاراتها.

ويظل المسرح من أبرز الفنون التي لا تتوقف عن التطور في الأردن، وهذا يتأكد بما يقدمه في تشابكه مع الفنون الأخرى وتجدده المستمر الذي ساهمت في ترسيخه العديد من الفنانات الأردنيات اللواتي قدمن للفن المسرحي الكثير ليصل إلى مرحلة من النضج ما جعله يحظى باهتمام الكثير من النقاد المسرحيين والكتاب والإعلاميين العرب، فكتبوا عن تجاربه (عروضا ونصوصا) وعن تاريخه وإشكالياته دراسات ومقالات نقدية كثيرة.

وفي إطار إبراز دور المرأة في الحراك المسرحي في الأردن عاينت ندوة نقدية عقدت أخيرا في فضاء مسرح كلية الفنون والتصميم بالجامعة الأردنية، التحولات والتطورات في المسرح الأردني من حيث البدايات التاريخية وصولا للوقت الحالي والشكل والمضمون لتجارب وأدوار عدد من المسرحيين التي أسهمت في تنامي الحركة المسرحية على امتداد مئة عام.

والندوة التي نظمها قسم الفنون المسرحية، بالتعاون مع منتدى النقد الدرامي ضمن فعاليات مئوية تأسيس الدولة الأردنية، وحملت عنوان "المسرح الأردني في مئوية الدولة الأردنية"، سلّطت الضوء على مساهمة المرأة الأردنية ودورها في الحركة المسرحية في الأردن.

وشارك في الندوة الكاتب والناقد مجدي التل، والمخرج والناقد باسم دلقموني، والفنان عماد الشاعر، بحضور عميد كلية الفنون والتصميم الدكتور محمد نصار ورئيس قسم المسرح في الجامعة الدكتور عدنان مشاقبة ورئيس الهيئة الإدارية لمنتدى النقد الدرامي الدكتور يحيى البشتاوي.

وفي ورقته التي حملت عنوان "حضور المرأة الأردنية في المسرح على امتداد مئة عام" لفت التل إلى أنه أسوة بمختلف المجتمعات العربية، تأخر حضور المرأة الأردنية في المسرح رغم أن البدايات الأولى للحركة المسرحية وإرهاصاتها كانت في بداية القرن الماضي، وذلك يعود إلى أسباب ثقافية اجتماعية، إلا أن الحضور الفعلي والمكرس للمرأة في المسرح بدأت ملامحه تأخذ عتباتها الأولى في بداية ستينات القرن الماضي.

> المرأة الأردنية تأخر ظهورها في المسرح لأسباب عديدة طيلة عقود لكنها اليوم أهم ركائز الفن المسرحي

والمرأة لم تكن فاعلة في مجال الكتابة للمسرح أو الإخراج المسرحي منذ بداية المسرح في العالم العربي، وحتى منتصف القرن العشرين، لكن إسهاماتها في تطوير المسرح العربي كانت إسهامات ملموسة وفعّالة في المجالات المسرحية الأخرى مثل الأزياء وغيرها، ليتحقق لها الحضور الفعلي فوق الخشبات كممثلة أو كمخرجة في العقود اللاحقة وتقدم أعمالا تنافس المسرحيين وتتفوق عليها في أحيان كثيرة.

واستعرض التل في الندوة التي أدارها الفنان عماد الشاعر، مراحل وأشكال حضور المرأة في المسرح بوصفها ممثلة ومخرجة وكاتبة وباحثة والمهن المساندة في العملية الإنتاجية المسرحية، منوها أن ثمة مؤشرات كبيرة في العقود الأخيرة على تنامي حضور المرأة في مختلف مواقع العملية المسرحية إضافة إلى الاهتمام بالتوسع في الدراسات الجامعية بتخصصات الصناعات الدرامية وإقبال العديد من الشابات على دخول هذا المجال علاوة على التحولات الاجتماعية الثقافية في العقود الأخيرة بالمجتمع الأردني والتي أسهمت في تطور الوعي وقبول شريحة واسعة من المجتمع لحضور المرأة في صناعة الفن.

وبدوره، تحدث الدلقموني عن تجربة الكاتب الراحل جمال أبوحمدان وموضوعاته حول المرأة وتوظيف الشخصيات النسائية في محمولات عروضه المسرحية، مستعرضا مسرحيات "علبة بسكوت لماري أنطوانيت" و"حكاية شهرزاد الأخيرة في الليلة الثانية بعد الألف" و"ليلة دفن الممثلة جيم".

ولفت إلى أن الكاتب أبوحمدان ركز في نصوصه المسرحية على الجوانب الإنسانية التي لا تحدها حدود وكان للمرأة فيها مكانة مهمة وخاصة، مقدما إياها عن قصد وبوعي إنساني رفيع من خلال تاريخها.

وفي هذا الإطار، بيّن دور المرأة في هذه النصوص المسرحية التي كتبها الراحل أبوحمدان وتوظيفه لها في إسقاطات تتعلق بالراهن العربي في مختلف أبعاده الثقافية والاجتماعية والسياسية.

واعتبر في ختام ورقته أن الراحل أبوحمدان يعد في بعده الإنساني منفتحا على كتاب المسرح على المستوى العالمي، معتبرا أنه لم يأخذ حقه ككاتب أعمال درامية؛ من مسرح وسينما وتلفزيون، من دراسة وبحث بالقدر المطلوب.

وكان الشاعر نوّه بأن هذه الندوة تناولت المرأة في المسرح الأردني من ناحية تاريخية توثيقية ومن ناحية مضمون ورسائل ومحمولات أسهمت في إبراز الدور المهم للمرأة في المجتمع. وفي ختام الندوة جرى حوار ونقاش بين الجمهور من أكاديميين وطلاب مع المتحدثين.

امرأة بعضلات شمشون (مسرحية قلادة الدم)